الفصل التاسع
ذكر فتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص

أجمع المؤرخون على صحة القول بأن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد بعد وفاة النبى ﷺ بثمانية عشر عامًا، وفى خلافة عمر استولى الملك هرقل اللعين على القدس الشريف، وأعاد عمر فتح القدس الشريف بجيش قوامه أربعين ألف مقاتل، ووجه عمرو بن العاص والأسود بن المقداد على رأس جيش من أربعين ألف مقاتل لفتح مصر، فاتجها إلى مكة المكرمة، ومن جانب جمع عمرو بن العاص جيشًا قوامه أربعة آلاف وخمسمائة من فرسان العرب وأربعة آلاف مختارين من خيرة العربان البواسل الأبطال مشاة، وبعد طى المنازل وقطع المراحل، بلغ عمرو بن العاص الرَّملة على مقربة من العريش وهناك مكث حينًا، وحين مقامه فيها جاءه رسول من قبل عمر بن الخطاب يحمل رسالة فحواها قوله له:

«إذا بلغتك رسالتى وكانت قدمك قد وطأت أرض مصر. فاحمل على مصر، وسوف ييسر الله أمرك بمشيئته ـ تعالى ـ، أما إن كنت لم تدخل أرض مصر بعسكر الإسلام، وكانت غزوة عمان فى العراق ولزام أن تعود».

فجمع عمرو رجاله وأهل البلاد وتلا الرسالة ثم سألهم: العريش فى أرض مصر أم هى أرض فلسطين؟ فردوا عليه قائلين: يا عمرو إن العريش على منزلين داخل مصر، ولما شهدوا له على ذلك؛ أرسل إلى عمر يخبره هذا الخبر مع راكب الوجناء لسرعة سيرها، فقال عمرو بن العاص: توكلت على الله، وتوجه إلى مصر.

وكان المقوقس على الفسطاط وإليا لليونان وهى الآن تسمى مصر القديمة، وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رسائل فى الخفاء، ومن ناحية أخرى أرسل هرقل اللعين من أنطاكية وطرابلس وصيدا وعكا ألف سفينة تحمل ستين ألفًا من جنده إلى قلعة الإسكندرية. فحملوا جميعًا على جند الإسلام، واتجهوا إلى ساحة مدينة بلبيس للقتال، واختلط جند الفريقين فى ساحة الوغى وتراشقوا بالسهام، فكانا بحرين تلاطمت

أمواجهما ودام القتال شهرًا بتمامه، والتقى الجمعان، جيش أهل لا إله إلا الله وجيش الكفر، ودخل جند المسلمين المعركة، فمنهم من قطع رأسًا ومنهم من قطع رأسه.

نزع سيفنا جوشنهم[1] ∴ وودعت الأجساد أرواحها

فتغطت أرض حاسان بأكوام من أجساد القتلى ونصر البارى جنده نصرًا مبينًا، ولحقت هزيمة ماحقة بالروم، وفى تلك الحرب حمل «أشقف» القبطى من المقوقس رسائل، وقد حضر هذه الحرب ورأى الروم فى كسرتهم، فأخبر بذلك المقوقس، فجعل القبط يقاتلون الروم، وفى موضع يسمى «قواصر» أقام عسكر الإسلام خيامهم ومكثوا فيها، وقال القبابطة إن جند العرب جند شداد غلبوا ملكنا المقوقس وأوقعوه فى الأسر، وسبق أن هزمونا وأسرونا ـ قال هذا بعضهم لبعض ـ وكان يقول بعضهم أيضًا: إن هؤلاء العرب قوم أحبهم ملكنا المقوقس وهم جند محمد العربى وإذا انضممنا إليهم كانوا المظفرين وفى هذا الأمر تشاوروا.

فغادر جند المسلمين بلبيس وعسكروا فى موضع يسمى «أم دنين» بالقرب من مدينة الخانكة ومن هذه الجهة خرج جيش الروم وفى صحراء الخانكة اقتتل الجيشان ثانية وتقاتلوا سبع ساعات حتى المساء ثم تهاونوا عند الغروب، وفى هذا اليوم استشهد من الصحابة الكرام سبعون رجلاً ـ عليهم رحمة الله ـ ومن الغد فى الصباح وصل مدد من قبل عمر يتألف من أربعة آلاف رجل هم من خيرة الجند، فدبت فى جند المسلمين روح جديدة، وفى هذا اليوم حاصروا قلعة «بابليون» وهناك دار قتال ضار، وفى النهاية تولى القيادة الزبير بن العوام والأسود بن مقداد وشدوا من جانب القلعة التى دكت بالمنجنيق ففتحت وغنم المسلمون كثيرًا من الغنائم وفى موضع القلعة المفتوحة ـ بحمد الله ـ جاء مدد من أربعة آلاف جندى من خيرة الجند وألفى جمل وسُرَّ عسكر الإسلام سرورًا عظيمًا وانخلعت قلوب من فى مصر من الروم رعبًا، وتشاور عمرو بن العاص فى الأمر وأقر الهجوم على مصر من جهاتها الأربع، ثم رأى جواز محاصرتها، ثم انطلقوا إلى الإسكندرية؛ وطووا المراحل فى أرض البحيرة وضربوا الحصار على قلعة

(١) الجوشن: الصدر، والدرع.

الإسكندرية، ووصل المدد تباعًا للروم. إلا أن عسكر الإسلام أحاطوا بداخل القلعة، وبعد أن دام الحصار تسعة أشهر بالتمام خرج القبط من القلعة آمنين ومضوا إلى مدينة حوش عيسى بالقرب من دمنهور، أما جند هرقل اللعين لم يقبلوا الصلح الذى اقترحه ملكهم وخرجوا للقتال، وفى آخر الأمر فى العام التاسع عشر للهجرة مات هرقل اللعين فى مدينة قيصرية فجزع الروم الموجودون فى الإسكندرية لموته، وعرف عسكر الإسلام كذلك هذا الخبر، وأغارت جيوش الموحدين من نواحى القلعة التى دكها المنجنيق وفى يوم الجمعة فى شهر المحرم من العام العشرين للهجرة فتحت قلعة الإسكندرية الحصينة وغادرها كل من فيها راكبين السفن ومضوا إلى عكا وصيدا ومنهم من اتجه إلى الرملة واستولى جيش المسلمين على قلعة الإسكندرية، وأقاموا أديرة ومساجد وتكايا، وبشر عمرو بن العاص عمر بن الخطاب بهذا النصر وأرسل له عشرة آلاف صندوق من الذهب كما أرسل إليه مرارًا مائة ألف قطعة من السلاح ولما وصلت عمر أصدر أمرًا يقول له فيه: «لا شك أنك مالك مصر، ولا تنظر إلى القلاع على ساحل البحر، إن الحفاظ عليها أمر عسير، فإذا ما قدم الروم فى سفنهم استولوا عليها، أما إذا جاء الروم من ناحية البر انهزموا بمشيئة الله، وجاء بذلك رسالة مع خلعة فاخرة، لقد غنم جند المسلمين أموالاً كثيرة إلى حد أن خص كل منهم على الأقل مائة ألف دينار من ذهب، وفى زمن الجاهلية قدم عمرو بن العاص القائد الأعظم من القدس إلى الإسكندرية، ونزل ضيفًا على دار الشماس.

وفى ميدان اللعب بالصولجان وضع عمرو على رأسه كرة الصولجان، فتذكر عمرو هذا فمضى إلى الشماس فوجده مريضًا طريح الفراش، فداواه أيامًا عدة حتى عُوفِى الشماس من مرضه؛ فمنحه عمرو سبعين جملاً تحمل مال الخزائن، ودعى الشماس إلى الإسلام، فشرفه الشماس بالدخول فى الدين الحنيف توًا بلا تردد، وقدّم الملك المقوقس إلى غزاة المسلمين فى الإسكندرية من أطايب الطعام والشراب وكثيرًا من الهدايا، وجعل عسكر الإسلام يغتنمون ولكن عسكر الروم كانوا محصورين فى مصر القديمة لأنهم كانوا مجبرين على أن يكونوا فى يد الروم وسوف نذكر أوصاف مدينة الإسكندرية فيما يلى بمشيئة الله.

وصف حصار عمرو بن العاص - رضى الله عنه - لمدينة القاهرة

فى العام الحادى والعشرين للهجرة حينما كانت الخلافة لعمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص أن يضرب الحصار حول مدينة الفسطاط، وهى مصر القديمة، بجيش كموج البحر؛ وذلك بعد فتح القدس. وفى الحملة الرابعة على الشام وبالقرب من مدينة دمشق فى موضع يسمى (حابية) أنفذ عمر إلى عمرو بن العاص جيشًا قوامه أربعة آلاف مقاتل، وبينما كان فى طريقه من دمشق إلى مصر فتح فى البداية ديار عسقلان وقلعة يافا وقلعة تينة وقلعة دمياط وقلعة البرلس وقلعة رشيد وبعد ذلك فتح مدينة خوش وقلعة الفيوم وقلعة بهنيسا، وبعد ذلك أحاط بمصر القديمة، وبعد قتال دارت رحاه ثلاثة أشهر وفى المرة الثالثة جاء المدد وعلى رأسه الزبير بن العوام ومقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، مضى المقوقس فى أمان مع من معه إلى حوش عيسى، ولم يستطع الروم الصمود للحصار؛ فسلموا قلعتهم صلحًا ومضوا فى النيل إلى دمياط، وأصبحت جميع الكنائس مساجد، وبلغت عمر بن الخطاب البشرى بفتح الفتوح هذا، وعبَّر جميع الصحابة الكرام وجميع أهل مكة والمدينة عن فرط ابتهاجهم بذلك، وقدم عمرو بن العاص واليًا على مصر من قبل عمر بن الخطاب وبدأ عمرو بن العاص بإقامة العدل بين الناس وأولى عمران مصر اهتمامه، وفى العام الحادى والعشرين للهجرة أقام عمرو بن العاص فى موضع خيمته مسجدًا عظيمًا وحمامًا وسموه حمام (الفأرة)، وأقام فى جانب مدينة الجيزة قلعة كما أقام قلعة فى جزيرة أم القياس وسماها قلعة الروضة، واليوم تسمى هذه الجزيرة جزيرة الروضة، لأنها تشبه روضة من رياض الجنة وآثارها اليوم بادية للعيان.

ودانت بالطاعة لعمرو من قبائل العرب قبيلة بنى مالك وقبيلة بنى شكر التى سكنت جبل الكبش، وأقام فى موضع الخيام مدينة أسماها فسطاط شكر وكان اسمها من قبل مدينة جبل الكبش، فقد كان فيها فى عصر الكهنة كبش من النحاس الأصفر وهو طلسم عظيم، وإذا ما تعارك هذا الكبش مع الكباش زاد عدد الشياه، ولذلك سموه جبل الكبش، وقدمت قبيلة بنى حَجَر وبنى سيف ونافع وهمدان وأطاعت عمرو بن العاص، واستوطنوا العرب المناطق الواقعة من الجيزة إلى أرض المغرب إلى أوجله، كما

أطاعته قبيلة ابن همام وبنى جَوَّارة وبنى عـابد واتخذوا من مصر العليا وطنًا وقدم الملك المقوقس إلى عمرو خزانة من ذهب وبسط إليه الرجاء أن يقيم على جبل المقطم وسفحه فى الجانب القبلـى من مصر، ولـم يقبل عمرو ما قدم إليـه المقوقس من ذهب، وعرض ذلك على عمر بن الخطاب فى المدينة ولـم يرض عمر بذلك وكتب إليه يقول: «إن هذه أرض مباركة وأقم لموتى المسلمين فيها مقبرة، لأن فيها سيدنا عامر أو مغافر وفى السفح دفن خمسة رجال وحذافـة بن عبد الله السهيمى وعبد الله بن حـارث الزبيدى من زبيد وهى مدينة من مدن اليـمن، كما دُفن فيها أبو نصر الغفارى وعامر بـن عقبة الجهينى، كما دفـن فيها كثيـر من الأنبياء قـبل الطوفان، وكـم من أبناء الأنبيـاء دفنوا فيهـا بعد الطوفان، ولا تكون المقبرة إلا للمسلمين».

هـذا ما كتـب عمر فى رسالته إلى عمـرو، فما أعطى عمرو هذا المكان لـلمقوقس إنـه الآن المقبرة الكبرى، وفيها يدفن عظـماء مصر وسوف نكتب عن هذا بمشيئة الله فى موضعه.

وبناء على قول ابن الحكم ـ رحمه الله ـ إن جبل خليل الرحمن فى القدس وجبل طور سيناء وجبل ينـبع وعرفات وإلى ساحل نهر مراد والرها وحلـب وربح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حـتي مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحـكم، ويذهب إلى هذا كذلك كعب الأحبار، ولكن بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين يقولون: «أرض حاسان هى مدينة بلبيس وما بعدها إلى مصر أرض غير مقدسة»؛ فافهم بقول صحيح..

أما فـى تواريـخ القبـط فمـن يدفنـون فى جبل المقطم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عـذاب، وهـذا ما تبينه أحاديـث سيدنا إدريس ـ عليـه السـلام ـ ودانيـال والعـزيـر والنبى قفاح.

وإذا ما دخل مصر مـن اشتد به العلة ورقد فى ظـل جبل المقطم سبعـة أيام شفى بإذن الله، وعند طـلوع الشمس مـن وراء هذا الجبل يمتد ظـله إلى مصر الـقديمة الواقعـة على ساحل النيل، وعلى حد قول وهب بن سفيان أن ما يقع عليه ظل هذا الجبل فى مصر يُعد أرضًا مقدسة، لأن فى هذه المنطقة دفن أنبيـاء وبنوهم وما أكثرهم، والحق أنها جديرة بأن تكون أرضًا مقدسة ففى داخل مصر وخارجها دفن من الصحابة ثلاثمائة وأربعون.

وحينما فتح عمرو بن العاص مصر دفن فى أركان مصر الأربعة سبعة آلاف شهيد من الصحابة الكرام ومجمل القول أنه حينما حكم عمرو بن العاص مصر عمرت إلى حد أن أصبحت عروس الدنيا وأم الدنيا.

وفى زمن إبراهيم - عليه السلام - أجرى طوطيس ماء النيل إلى بحر السويس وبعد ذلك سمع أبو المقوقس بظهور النبى ﷺ فَسَدَّ الخليج رغمًا عنه، فلم يجر النيل إلى السويس، لكن عمرو بن العاص جرف هذا الخليج مرة أخرى، فجرت فى النيل سفن تحمل الغلال إلى السويس ومنها مضت السفن إلى جدة وينبع، وغُنِمت مكة والمدينة، لأن البارى فتح من الجنة على وجه الأرض أربعة أبواب: باب فتح على ميناء جدة، والثانى على ولاية عسقلان، والثالث على ولاية غزة، والرابع على ولاية الإسكندرية وهى ولايات مصر، والسلام.

وبعد ذلك توفى عمر فى المدينة، وآلت الخلافة إلى عثمان، وفى عهده مات عمرو ابن العاص فى مصر، وجعل عثمان الحكم فى مصر لمحمد الأكبر ابن أبى بكر الصديق، ولكن مروان كاتب عثمان وهو غير مروان الحمار، ما إن بلغ محمد الأكبر مصر حتى وجّه من قبل عثمان، إلى أهل مصر رسالة، وبحيلة من مروان الكاتب وهو يكتب كتب عبارة: إذا جاء الأمير فاقبلوه. وجعل القاف والباء بلا نقط وختمه بخاتم عثمان، ثم جعل فوق الباء غير المنقوطة نقطتين فأصبحت «فاقتلوه»، وأرسل مروان الكاتب هذه الرسالة إلى مصر واقتضت حكمة الله أنه حينما وصلت هذه الرسالة وقعت فى يد محمد الأكبر فردها إلى المدينة المنورة، ولما أطلع أهلُ المدينة عثمان عليها قال: حاشا لله لا علم لى بهذا الخبر، وحجزه فى بَيْتِه وضرب أهل المدينة الحصار على بيت عثمان أربعين يومًا وبينما كان عثمان يتلو القرآن الكريم فى اليوم الحادى والأربعين قتلوه شهيدًا. وأوصاف المدينة المنورة مذكورة أعلاه.

ثم كانت الخلافة بعد عثمان لعلى بن أبى طالب، إلا أن دولته لم تكن وطيدة الأركان وظهرت فى مصر الفتنة والفساد إلى الغاية، فكانوا يولون كل يوم حاكمًا. وبقى حالها هكذا إلى زمان دولة العثمانيين.

* * *